فلسفة السخرية في موضوع التربية الجزائرية- النكتة الشعبية أنموذجا-

د.حميد قرليفة، جامعة غرداية- الجزائر

The irony philosophy in the subject of education Algeria- Popular humor as a model-

Dr. Hamid KRELIFA, University Ghardaia- Algeria

ملخص: النكتة هي دعوة الفرد الاجتماعي إلى التفاؤل والضحك، والمرح، قد تكمن من ورائها سخرية مريرة يرفضها أفراد المجتمع، ويريد إدانتها بأسلوب ساخر فاكه، يعتمد على المقارنة والمفاجئة، إنها تعبير جماعي عن الضيق والحاجة والتنفيس الفاكه عن هذا الضيق، وتسري النكتة في أوساط المجتمع معبرة عن إدراك أفراده ووعيهم، من جانب، ومن حاجتهم للتخلص من هذا الإحساس المرير الذي يعتريهم من جانب آخر، فتؤدي النكتة إلى ما يؤديه الحلم من إعداد التوازن إلى الفرد، وتعويضه عما ينقصه في عالم الواقع أو الحقيقة، أو كما أنها تشبه إلى حد بعيد ظاهرة تعاطي المخدرات، كما يرى عالم النفس الإسرائيلي افرايم لهمان. ويكمن هذا التشابه في كون النكتة وسيلة للهرب من الواقع المعاش وأشبه بغسيل دماغ ذاتي، يحل محل التفكير العميق.

الكلمات المفتاحية: السخرية – النكتة – موضوع التربية – النقد– التنفيس.

Abstract: Joke is the social individual‘s call to optimism, laugh and fun It may lie behind the bitter irony reject by members of the community and wants to condemn it in a sarcastic fashion based on the comparison and surprise It is a collective expression of distress and need and venting from this discomfort Community members express the awareness of their members on the Part of their need to get rid of this bitter feeling they have on the part of .

The joke leads to the dream of the preparation of balance to the person and compensate for what is lacking in the world of reality or truth Or as it is very similar to the phenomenon of drug abuse as seen by the Israel psychologist " Efraim Lehman" The similarity lies in the fact that humor is a way of escaping the reality of life and is like a brainwashing that replaces deep though.

keywords: The irony - humor - the subject of education - Criticism- catharsis.

مقدمة:

إن النكتة تخلق إجماعا وتسهل على الفرد سبيل الاتفاق مع الجماعة من حيث اللغة، القيم التقاليد العادات وغيرها من المؤشرات والأبعاد التي تتفق عليها الجماعات، وبواسطة النكتة يسهل الكثير السير مع التيار وتقبل الأهداف الاجتماعية الشائعة والمعروفة والمتفق عليها وبطبيعة الحال هذه الأهداف الاجتماعية السائرة في المجتمع بتقاليده وأعرافه ولغته معروفة من طرف كل أفراد المجتمع حيث أن كل مجتمع له الكثير من النكت باختلاف أنواعها وتقسيماتها التيبيولوجية، وهذه الأخيرة (النكت) لا تقبل الترجمة من لغة إلى أخرى نظرا لارتباطها بعادات المجتمع وأفكار أفراده.

ويرى برغسون أن الإنسان لا يستطيع أن يتذوق النكتة، أو يفهمها، أو يضحك لسماعها، لو أنه وحيد يحيا في عزلة مع بقية الناس، كما شدد كذلك على أنه " إذا أردنا أن نفهم السخرية (النكتة) على حقيقتها فلابد لنا من أن نتصورها في محيطها الطبيعي ألا وهو المحيط الاجتماعي أو المجتمع" (Henri Bergson،1940، p42-43).

إن للنكتة سرعة الانتشار مثل الإشاعة بين أوساط المجتمع، مكونة بذلك فكرة حول قضية من قضايا المجتمع التي يعاني منها، وبالتالي تكون بذلك رأيا عاما قد يضم سواء الناس، ويقول ألبورث غوردون، و ليو بوستمان في هذا الصدد أن الكثير من الأقاصيص والنكت التي تنتشر انتشار الإشاعة إنما هي نتاج صريح للخيال، لا تستهدف إثارة التصديق، وإنما إثارة الضحك ومع ذلك فإنها هي الأخرى يمكن أن تعبر عن الكراهية الإخبارية أو تنطوي على نقد اجتماعي، أو تطلع بالتنفيس على بعض المشاعر الانفعالية المقموعة، فالنكتة والإشاعة من حيث طريقة السيران، أو من حيث الوظيفة، غالبا ما تكشفان عن بعض التشابه يبعث على الدهشة.

وفي وقتنا المعاصر تصنف النكتة على أنها من أحدث الأشكال الأدبية إقبالا لأفراد المجتمع نظرا لبساطة لغتها وسهولة فك رموزها، وتناولها من طرف كافة أفراد المجتمع.

كما تعتبر النكتة بصورة أساسية ظاهرة اجتماعية ترسم في بعض الأحيان على شكل موجات متناقلة من الحديث وتنحدر في ظروف أخرى كشلالات من العنف على الواقع المعاش وتقتصر في بعض الأحيان على فئة محدودة في لحظات تحتضنها كمنفس عن آلامها وحقدها ولكن النكتة سواء كانت مسالمة أم مدمرة، واسعة المجال أم ضيقة، طويلة العمر أم قصيرة تظل ظاهرة قائمة ضمن نسيج كل الثقافات من ثقافة أي مجتمع، ومن المستحيل أن نتصور مجتمعا بغير نكت، ومن هذا المنطلق وإذا سلمنا أن من مميزات الظاهرة الاجتماعية الشمول والانتشار، فنجد أن النكتة هي ظاهرة اجتماعية، كونها كل المجتمعات البشرية وتنتشر بين جميع فئات المجتمع أيا كانت.

إن شكل التعبير في النكتة ليس ضروريا أن يكون إعلاميا و تبيانيا، بل النظرة الفاحصة للنكتة تكشف أن شكل التعبير فيها ينطوي في غالب الأحيان على مضمونها أو محتواها، أو على الدلالة الخفية لهاومن الممكن أن تكون الدلالة الخفية هي الأكثر أهمية والأكثر صدقا وهذا ينطبق على جميع النكت مهما كانت أنواعها أو أصنافها.

والنكتة فيما يرى فرويد سيغموند تفرض ضرب من التماسك الاجتماعي، "وتعمل على صياغة الاستقرار الفكري والاتحاد العاطفي ضد شتى عوامل التنافر والتشتت أو التميز والمفارقة وهذا ما دفع ببعض الباحثين إلى دراسة أخلاق الشعوب من خلال نكتهم، فالنكتة هي مرآة تنعكس عليها أحوال المجتمع وما مر به من أحداث"(Freud Sigmund، 1961، p59–60).

الفهم الفلسفي للنكتة:

قد يرى البعض أن النكتة ترتبط ارتباطا كليا بالأدب الشعبي كالنوادر والقصص والأساطير الخرافات وغيرها، لكن بعد التمعن والدراسة نجدها أقرب أكثر إلى الفلسفة فهي ظاهرة إجتماعية لأنها تتميز بميزات الظاهرة الاجتماعية وهي الشمول والانتشار، و بالتالي فالنكتة لها طابع درامي، وهي"عبارة عن قصة قصيرة جدا تتميز بطبيعتها الدرامية، كما أنها تتميز بتصعيد الحدث ونهايته بطريقة فجائية تتركز فيها الفكرة الأساسية في النكتة"(محمد الجوهري،1990، ص73).

من خلال هذا التعريف نستخلص أن النكتة هي عبارة عن رسالة مرمزة يرسلها المرسل إلى المستقبل تتكون بينهما عمليتين من التأثير فالعملية الأولى يعبر عنها المستقبل بالضحك والعملية الثانية من التأثير فهي الفهم للمعنى الخفي للنكتة وهو ما يعبر عنه بالفكرة الأساسية، وكل ذلك بعد تفكيك الرسالة أو الرموز الموجودة فيها كما أن هذه العملية الاتصالية لا تستغرق وقتا كبيرا للضحك بينما قد تستغرق وقتا للفهم وفك الرموز.

كما أن العيب الذي يكون مرتبط بالبشر والذي يحول إلى جملة وبالتالي إلى نكتة فهو يضحك الإنسان بحيث"...يبقى الضحك الذي تخلقه النكتة في نفوسنا وفي نظر الباحثين في علم النفس ظاهرة نفسية أو ظاهرة اجتماعية بحتة" (محمد أبوخضور، 1977، ص17) كما "ترجع أصول النكتة الخفية ما يعيش في قرارات روح الشعب من إحساسات واهتمامات روحية جمعية"(نبيلة ابراهيم، دون سنة، ص176-181).

وتعتبر "النكتة السيف المسلط الذي تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية وكل من تحدثه نفسه بالخروج عن قوانين الجماعة وأساليب سلوكها...فهي إذن تفرض وجود ضرب من التماسك الاجتماعي"(محمد أبوخضور، 1977، ص25).

فالنكتة لا تستهدف إثارة التصديق وإنما إثارة الضحك و السخرية وهي تعبير عن الكراهية الملل السأم، وتنطوي على نقد اجتماعي أو تطلع بالتنفيس عن بعض المشاعر الانفعالية المقموعة، فبدلا من أن يقول فرد أو جماعة نحن نكره أو مللنا من القيم الدخيلة، والعادات الجديدة، والتقاليد الغربية فيعملون على إشاعتها (النكت في أوساط المجتمع).

وترى مجلة الثقافة والتراث القومي أن " النكتة هي دعوة الإنسان الشعبي إلى التفاؤل وإلى المرح قد تكمن من وراءه سخرية مريرة من مظاهرها يرفضها الإنسان ويريد إدانتها بأسلوب ساخر فكه يعتمد على المقارنة والمفاجئة، إنما تعبير جماعي عن الضيق والحاجة إلى تنفيس الفكه عن هذا الضيق فهي تعمل على إعادة التوازن إلى الفرد وتعويضه عما ينقصه في عالم الواقع"(نرجس حجاب، 1992، ص36).

فالنكتة إذن هي صيغة لغوية بسيطة تختلف من مجتمع إلى مجتمع آخر حسب اللغة المتداولة تهدف إلى إثارة عمليتين، عملية نفسية، وعملية اجتماعية فالعملية النفسية هي الضحك و السخرية والعملية الاجتماعية هي عملية عقلية كالفهم والنقد، وكذلك هي طرح لغوي يعالج مختلف القضايا الاجتماعية ويختلف ذلك الطرح حسب ثقافة كل مجتمع يهدف إلى التنفيس والضحك والمرح كما يهدف إلى تكوين الجماعات والتماسك فيما بينها. ولذلك هي عملية اتصالية بين فردين أو أكثر وتحمل رسالة اجتماعية مرمزة يضحك المستقبل للنكتة عند سماعها ويفهمها عند فك رموزها الاجتماعية.

الدراسة اللغوية للنكتة ومميزاتها:

إن دراسة النكت من جانبها اللغوي وترجمتها من لغة عامية إلى لغة فصحى ليس بالأمر الهين وذلك لأسباب عدة أهمها فقدان المعنى الصحيح أو الفكرة الأساسية، ومع هذا تبقى اللغة العامية المتداولة إحدى الوسائل الاتصالية الأكثر فعالية في نجاح النكتة، كما أن النكت باللغة الفصحى تعتبر إرث ثقافي تفتخر به كل المجتمعات فالمجتمع الذي لا توجد فيه نكت هو مجتمع لا يعرف الضحك و السخرية و بالتالي فهو مجتمع عبوس، فقد يفقد التماسك الاجتماعي وهذا ما يرمي إليه فرويد " بأن النكتة تفرض وجود ضرب من التماسك الاجتماعي"(Sigmund Freud، 1930، p88) والنقد بواسطة النكت، فما أحوج الكثير من المجتمعات إلى الضحك في هذه الأوقات وما نقصده هنا، هو أن نعرف كيف نضحك ومتى نضحك.

يرى هنري برغسون "أن التلاعب اللفظي مظاهر إطلاق العنان للغة وكأن اللغة تنسى أو تناسى غايتها الحقيقية، فتزيد هي الأخرى أن تتحكم في الأشياء بدلا من أن تدع الأشياء تتحكم فيها"(هنري برغسون، 2007، ص 49-50). ومعنى هذا التلاعب اللفظي في النكتة هو دليل على انحراف اللغة انحرافا مؤقتا وكأنها تريد أن تلهو وتعبث وهذا اللهو أو ذلك العبث هو السر في ضحكها, وبالتالي تكون اللغة في النكتة في أغلبها عامية ذات عبارة أو عبارات متداولة تتناقلها جميع الشرائح حيث تكتسي النكتة طابع المرونة اللفظية التي تعيق الجاهل أو الأمي في فهمها والمتعلم في سردها فتتبقى محفوظة في ذاكرة مختلف شرائح المجتمع.

ومن خلال الجانب اللفظي للنكتة اتضح لنا من مجموعة النكت أن قائلها وبالأحرى ناقلها استعمل أفعال ماضية وما يدل على ذلك في اللغة العامية للنكتة كلمة "خطرة" أو "مرة" أو "قالك" أو "وحد النهار" والتي توازي باللغة الفصحى العربية "مرة" "كان يا مكان" أو "في زمن بعيد " أو مرة وغيرها, وذلك لغرض الاتصال أو التعبير عن قيمة الحادث أو الواقعة التي مضت.

أما الأفعال المضارعة فنجدها أقل إذا ما قرناها بالأفعال الماضية مثل الأفعال التي ترد في بعض النكت والتي تعطي طابع المشاركة, والمعايشة مع الحادث لتستنتج لسامع مزيد من الشغف والمتعة، أما خيال النكت فنجده يتناسب وغرضه، ليعطي للنكتة جانبها الفني وللألفاظ

جانبها الجمالي المنمق. و فيما يخص البديع فقد كان له عمق لفظي تسلل إلى النكت ليعطيها الاتحاد والترابط الجذاب كالطباق الذي يظهر كثير في مختلف النكت.

ومن أهم الخصائص التي تلفت الانتباه أن النكتة تعتمد بالدرجة الأولى على الأسلوب الخبري لأنه أقرب إلى سرد الحقائق أو القصص أو الوقائع، فالنكتة حكاية قصيرة مختزلة بطريقتها عن واقعة أو حادث. وتبقى النكتة ذات طابع فني تتوفر على جانب الخطاب والمتعة, فالخطاب غرضه تبليغ رسالة فتصبح النكتة وسيلة اتصال بين فئتين أو شريحتين من المجتمع (فرد مع جماعة, أو جماعة مع جماعة...) ويكون " تبادل النكت في أغلب الأحيان غرضه الترفيه فهي سبيل مأمون العاقبة يثير فينا الضحك و السخرية والتلذذ بالسمع وبالتالي تضفي على النكتة الخفة والإشارة بدون كلل أو ملل" Francis, 1953, p90) (Jeanson، كما هو الحال للنكتة في مجتمعنا الجزائري فقد صورت وعبرت عن مختلف المواقف والأحداث وفي أغلبها رافضة لواقع معاش, حيث رفعت التحدي,ولو بطريقتها وأزاحت الضعف بطوفان من الألفاظ الفادحة الموجعة والضاربة, ساخرة من له صلة بالتلاعب بمعايير وقيم المجتمع وبالتالي تعتبر النكتة من أوسع الفنون الأدب الشعبي شيوعا وإنتشارا وأكثرها دورانا على الألسنة ورسوخا في الوجدان ووثوبا في الذاكرة فالإيجاز اللفظي في النكتة والبساطة في التعبير يسهل من تداولها بين كافة أفراد المجتمع.

لذا أصبحت النكتة من مستلزمات الحياة الاجتماعية وبذلك تكون أكثر شمولية للفئات الاجتماعية والأكثر تعبيرا عن نفسية غالبية أفراد المجتمع وإحساساته وانعكاسات ضمائرهم.

الوظيفة الاجتماعية والتربوية:

ما يجب الإشارة إليه في أول الأمر هو العلاقة الوطيدة بين الوظيفتين الاجتماعية والتربوية باعتبار التربية عملا اجتماعيا فإننا نتحدث عن وظيفتين في عنصر واحد، وكمثال عن ذلك النكتة الجنسية والتي تعبر في مجتمعنا عن إحدى الطابوهات أول ما نلاحظه في دراسته الآثار الأدبية الساخرة للنكتة نزعتها النقدية، فهي تحاول أن تحسس أفراد المجتمع بما تعج به الحياة الاجتماعية من إيجابيات وسلبيات. وذلك يتتبع ما يجري في الواقع ونقده، ومعالجته بهدف التصحيح أو الإصلاح، و التقويم، فنعدد مخزون النكت هو حتما تعدد السلبيات والإيجابيات، ففي الفكاهة والسخرية "اختلاف الحالات النفسية التي يكون عليها، وتنوع المخزون لا وعيهم"(سيمان بطيش، 1883، ص12-13).

وللنكتة وطبقة اجتماعية علاقة هامة هي الحفاظ على القيم والمعايير والمثل العليا للمجتمع، وهنا تعتبر السخرية "...أسلوب نقدي له مميزاته الفنية، ويعتبر في واقعه بناء الحياة، وحارسا للمثل العليا"(حامد عبد الهوال، 1882، ص17).

إن النقد الذي تحمله النكتة في مضمونها يساعد على تثبيت المقومات الاجتماعية التي تنسجم مع المجتمع ، كما تعمل (النكتة) على محاربة الانحرافات الاجتماعية مهما تكن، فهي تقف ضد كل من يسخر أو يستهين بالقيم والمقومات الاجتماعية، ولهذا عد بعض الباحثين أن كلا من النكتة، السخرية وغيرها من المفاهيم الأخرى التي تصحب السخرية"... لمجاهدة نقائص المجتمع وتوجيه الأفراد إلى سلوك اجتماعي قويم.."(فتحي محمد عوض أبوعيسى،

1970، ص16) و " ها نحن حينما نضحك من المقصر أو الشاذ المظهر، أو صاحب العقلة أو الشحيح أو المغرور، فإنما نؤدبه بطريق غير مباشر أي أننا نؤدي خدمة اجتماعية"(فتحي محمد عوض أبوعيسى، 1970، ص16).

إننا لا نقصد هنا أن بالنكتة نستطيع تأديب أفراد المجتمع، ولكن بواسطتها نستطيع الكشف عن العيوب والانحرافات، فتعتبر كناقد اجتماعي، والمغزى الأساسي أنها تحاول أن تساعد أفراد المجتمع أو تحسسهم بالواقع الاجتماعي المعاش، وإيقاظ أفراد المجتمع من غفلتهم، وبث الوعي في النفوس والأذهان.

وهنا تتجلى الوظيفة الاجتماعية السامية للنكتة، ويبدو الدور المهم والواعي لرسالة النكتة في الحياة الاجتماعية، وبهذا الوعي نستطيع أن نقدم صورة كاملة للواقع المعاش في جملة ألا وهي النكتة وبواسطتها، نقاوم، ننتقد، نصحح النقائص الموجودة في المجتمع، ونتصدى ونحارب الاعوجاج الذي يضربه (المجتمع).

إنه لا يخفى علينا أن للنكتة وظائف اجتماعية أخرى، هي إشعار أفراد المجتمع بضرورة تقويم أخلاقهم، وإظهار تقاليد المجتمع وعاداته، وتقاليده وإلزام أفراد المجتمع بالمحافظة عليها، فمن أضاع تقاليده، ومقوماته وعاداته أضاع انتمائه إلى مجتمعه، فقد تعمل النكتة دائما على التماسك الاجتماعي لا انفصال عنه أو الانفكاك، وكذلك تساعد على اكتشاف الصلة الاجتماعية بين جميع أفراد المجتمع.

كما تقوم النكتة بتنبيه الإنسان إلى حقه الضائع في مجتمعه، إذ تقوم بطريقة ذكية، وبرموز خفية إثارة مشاعر وعواطف أفراد المجتمع نحو مجتمعهم وحريته وهذا إذا تعدت النكتة الحدود الإقليمية للمجتمع، على محاربة الجماعات الأخرى الخارجة عن التقاليد أو المختلفة في المعايير، القيم العادات، وخاصة إذا كانت تمس الشخصية، فهي تعمل دائما على المحافظة على سيماتها الاجتماعية ولهذا قيل "... لفئات مستمرة تنبه الأذهان إلى لحق الضائع، وتجدد المشاعر الكراهية للمستعمرين وتذكي نار الوطنية المقدسة، فلا يضعف لهيبها، وإن بدا خافتا، فلا يخبو نورها رغم إرادة أعداء الحرية والنور"(حامد عبدالهوال، 1882، ص100).

أما الوظيفة التربوية المهمة أيضا، ونجدها كذلك في النكتة وهي " مساعدة الإنسان على تثقيف نفسه وتقوية مخيلته"(محمد ناصر أبوحمام، 2004، ص34) وذلك يتدرب ذهنه على التفكير السليم، وتحليل الوقائع بموضوعة، وتوخي المنطق السديد.

وهكذا تقوم النكتة بوظيفة تهذيب العقل، وتقويم التفكير، وهذا يندرج ضمن عملية التثقيف وتكوين الذوق وتحسين الحس الجمالي في النفس، وبهذا يحس الفرد الاجتماعي بضرورة إتقان عمله وأداء واجبه كما ينبغي، كي لا يكون محل تنكيت أو مصدرا للنكتة، ويقول عبد العزيز البشري في هذا الصدد"... خلل في القياس بإهدار إحدى مقدماته، أو تزييفها أو بوصلها بحكم التورية ونحوها، بما لا تتصل به في حكم المنطق المستقيم، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس"(فتحي عوض أبوعيسى، 1970، ص17) وهنا نرى الملاحظة التي تبديها النكتة حين تشير إلى خلل في القياس المنطقي.

كما تقوم كذلك النكتة عن طريق الضحك الهادف، المربي، الذي يبديه أفراد المجتمع تجاه الأفراد المتصلبين، بعملية إنذار لهم وذلك بمختلف الوسائل، كالحركة أو الإشارة أو الكلمة وغيرها.

ومن أهم الوظائف التربوية للنكتة هي تعويد أفراد المجتمع وتدريبهم على ملكية النقد الذاتي وتنبيههم إلى أخطائهم وغلطاتهم، "... تزودنا بطريقة التعامل مع الأشرار، وهي أن ننتقدهم ونعاتبهم ونشعرهم بأخطائهم بأسلوب لبق، فنسخر منهم بدل أن نقصوا عليهم، ونعبث بهم فنربيهم، و نستميلهم إلينا بدل أن نكرههم ونبغضهم"(عباس محمود العقاد، 1979، ص 221)، وكأن النكتة هنا تحاول جمع أفراد المجتمع لا إجباريا لكن بلطف ودون قسوة ولكن بليونة. وهكذا تساهم النكتة في التربية والتهذيب والتوجيه الاجتماعي، ولا نغالي إذا قلنا إنه ما تقوم به النكتة من وظائف تربوية و اجتماعية تعجز عن القيام به وسائل أخرى.

النكتة في الفلسفة:

لقد اعتبر أرسطو أقدم و أول فيلسوف إهتم بالنكتة فراح يتأملها، بينما كان الفلاسفة الآخرون يوجهون عقولهم إلى المطلق (الكون، الخلق، الطبيعة ...) وقد إعتبر أرسطو النكتة إهانة فقال: " إذا نكت إنسان على إنسان فقد شتمه "(عباس محمود العقاد، 1979، ص86).

وكانت النكتة بالنسبة له نوعا من التحدي في مواجهة التأمل الفلسفي، وأيضا صورة من صور الحكمة، كحكمة البسطاء، والسفهاء الذين يشتمون السادة الكبار بذكاء، ويحطمون هيبتهم بالسخرية منهم، أو نقد بعض الظواهر والقيم التي كانت تبدو غريبة لدى اليونانيين ففي نظر أرسطو أن النكتة تكون الرأي عندما يعجز الفعل، أو عندما يسحق الرأي فلا مفر من السب بواسطة النكتة. فقد وضع أرسطو النكتة بين الواقع والفن فقال: ".. تنبثق عن الواقع وتقترب من الفن ..."(عباس محمود العقاد، 1979، ص86)، في نظره تنتشر أكثر عندما ينحدر الفن، وتشتد مرارة الواقع.

كما أجمع معظم علماء النفس على أن النكتة إضافة إلى وظيفتها النفسية (الضحك) فهي تحاول إعادة التوازن داخل النفوس القلقة، أو المضطربة، فهي بهذا الأداء تعد أداة فعالة للمحافظة على الصحة النفسية، فهم يرون أن الابتسامة رد فعل للسرور، والضحك رد فعل للألم، وقد يكون ذلك الألم ناتج عن الواقع المعاش و الذي يؤول إلى نكت فيكون رد الفعل هو الضحك كما يرى علماء النفس كذلك أن الأكثر ضحكا هو الأسرع إكتئابا.

يرى الأنثروبيولوجيين أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف الضحك أو يضحك فالكلب يهز ذيله، والحمار يحرك أذنيه، والقرد يبرز أسنانه، والإنسان يضحك، وخاصة لسماع النكتة فإذا كان الضحك خاصية إنفرادية للإنسان، فالنكتة ظاهرة إنفرادية للإنسان فلو ضحكنا على القرد فهذا فقط إذا ارتدى بذلة لأنه يقلد الإنسان، و يدخن سيجارة، أو يمسك بسماعة الهاتف، فلو تأملنا في هذا الفرق بين الإنسان والحيوان، نجد أن الإنسان وضع خيم للسرك للتنكيت على الحيوانات، ويسخر منها. مع أنه في قرون بعيدة كان عبدها، كما يرى برغسون أن عملية الضحك تكون "فقط عندما نكون بصدد مشهد بشري"(Henri Bergson, 1940, p2-3).

وهذا يفسر العلاقة الوثيقة بين الضحك والمقدرة اللغوية، أي بين النكتة والضحك، أو بالأحرى النشاط الذهني، والقدرات الحركية والميولات الاجتماعية، وحتى النزعات العدوانية.

يعتبر برغسون من أهم المنظرين للنكتة بجميع أنواعها، فيرى أن النكتة شيء حي مهما كانت، ثم أن النكتة توضح لنا مدى كفاءة أفراد المجتمع من حيث مدى التفكير، والتخيل الاجتماعي، وحتى القيم سواء كانت قيم مقدسة أو قيم فاسدة (غير مقدسة). أما سبنسر فقد حاول أن يقدم لنا تفسيرا معقولا للظاهرة السيكوفيزيولوجية وقد ربط هذه الظاهرة بالكلام والتنكيت وفي مقال تحت عنوان "فيزيولوجية الضحك" (H.Spencer, 1981, 60-p59).

أما لوسيان فابر فيرى أنه لا نضحك إلا إذا شاهدنا شيء ما أو سمعنا شيئا ما وهي النكتة فالضحك هو مرحلة انتقالية بعد سماع النكتة "فمن الخطأ أن نقول أن الضحك انفعال من الانفعالات، فإن الضحك في الحقيقة هو عبارة عن ظاهرة عضوية تترجم عن نفسها سيكولوجيا بالانتقال المفاجئ...إلى حالات أخرى مغايرة" (Lucien, 1928, 136-p138 Fabre)

إن معظم علماء الاجتماع تناولوا النكتة حسب انتماءاتهم النظرية أو الإيديولوجية، فقد اهتموا بها (النكتة) و حللوها لمعرفة ما ترمي إليه النكتة، أو بالأحرى بينوا أن للنكتة غايات مختلفة فهي لا ترمي إلى الضحك فقط وإنما لها أهداف مختلفة، خاصة لدراسة ثقافة الشعوب وكيفية تفكيرهم وهو ما دفع برغسون إلى دراسة النكتة عن طريق تحليل محتواها، وإستعمل في ذلك الحكايات الشعبية كذلك لمعرفة ثقافة الشعوب أو ثقافة مختلف المجتمعات.

السخرية من البناء التربوي:

الكثير من النكت والسخرية عبرت عن حضور وسط المعلمين والأساتذة في النكتة، وسط التلاميذ والطلبة هو الآخر حاضر في النكت، وموضوع التنكيت بين الوسطين الاجتماعيين المتمثلين في الأساتذة، المعلمين، وطلبة، تلاميذ حيث تنبع الأهمية العلمية للنكتة من حقيقة أن معظم ما يتم تداوله منها هو وليد البيئة الاجتماعية للمجتمع بمختلف شرائحه ومناطقه، أو ما يمكن تسميته بالخصوصية الثقافية للمجتمع كمجتمع محافظ حيث تقوم النكتة بفضح المستور من ثقافة المجتمع مما يقدم مادة خصبة لفهم خفايا المجتمع، والنكتة دائماً ما تكون وليدة موقف عفوي نقوم به، ونحن من يروي ذلك الموقف للآخرين، بهدف إسعادهم وإضحاكهم على ذلك الموقف، وبطريقة غير مباشرة تعمل على إضحاك الآخرين على أنفسنا وبطريقة عفوية، هذا لأن الإنسان بفطرته يسعى إلى المرح وبشتى الوسائل حتى ولو كان يضحك الآخرين عليه، ودائماً ما تحوي جلسات الأهل والأصدقاء حيزا كبيرا للنكتة إذ تعد النكتة سبيلاً للألفة والمحبة والتقارب العفوي بين الأشخاص، تقارب بلا تنظيم أو تخطيط، وقد تكون النكتة تعبيراً عدوانياً عند اكتشاف ضعف الآخرين أو للاستمتاع بالتقليل من شأن الآخرين، و من هنا نجد أن عملية التكنيت الخاصة بالعلاقة بين الأساتذة، المعلمين، و طلبة، تلاميذ سببها العملية التعليمية.

فعن العلاقة بين الطلبة والأساتذة حاولت النكت التعرض للخلافات المتأزمة بين بعض الأساتذة والطلبة، فمن خلال النكت نجد أن هناك تغيرا كبيرا في طبيعة علاقة الدارسين بالأساتذة في الجامعة ففي الماضي كانت العلاقة بالمدرسين علاقة محدودة، كان ينظر إلى الأستاذ بإحترام شديد، وفكرة التواصل الإنسانى بين الطالب والأستاذة مطروحة في إطار من الإحترام المتبادل.

أما اليوم كما تبين أغلبية النكت (النكت التي تعالج موضوع التربية) فان العلاقة بين الطلبة والمدرس سيئة وهناك درجات من السوء لهذه الحالة أحيانا نجدها متوسطة وأحيانا شديدة وطبعا هذا التردي خطير ولا يجدي نفعا لا للأستاذ ولا للطالب والمتضرر الأكبر من تردي العلاقة بين الطالب والمدرس هو الطالب حيث سيرتد الأمر عليه وعلى مستواه التعليمي بصورة واضحة وتتجلى تلك الصورة في تراجع المستوى التعليمي للطالب وهذا يؤثر على مستقبله،إضافة إلى الحالة النفسية الغير جيدة والتي سيعاني منها الطالب جراء تردي العلاقة، ويعود ذلك إلى فهم المدرس لتقديم الدروس على انه مجرد سرد للمعلومات دون أن يكون هناك جو تعليمي جذاب ومشجع للطالب للمتابعة مع المدرس وفي نهاية الدرس نجد أن الطالب إن سألته سؤال عن الدرس تجده لا يعرف الإجابة لأنه لم يفهم أصلا الدرس،كما أن تواجد الطالب في قاعة الدرس لإثبات الوجود وعدم بذله أي جهد للتفاعل مع المدرس ومع الدرس الذي يقوم المعلم بشرحه، ومن هنا تبرز عملية التنكيت والاستهزاء وقلة الاحترام بين الطلاب والسخرية.

وعن العلاقة بين المعلم والتلميذ والتي ظهرت بنسبة كبيرة في النكت، فقد حاولت النكت من خلال محتواها الكشف عن النظام التعليمي والتربوي في المجتمع الذي عرف عدة مستجدات مست بعض القضايا الأساسية سواء على مستوى البرامج والمناهج الدراسية أو على مستوى بنياته التربوية ومفاهيمه الفلسفية، وذلك في إطار محاولة تحقيق الفاعلية والدعم التربويين.

ما ترجمته النكت هنا العلاقة الأستاذ / التلميذ، وما يزخر به الواقع من مشاكل و تحديات يؤكد فشل معظم المشاريع التربوية، التي جربت في المدرسة، فقد عبرت النكت على أن هذه البرامج في مستواها الآني لا تزال غير قادرة على الانسجام مع الحياة بجميع أشكالها الحضارية والاجتماعية في واقعنا، وبالتالي يمكن اعتبار هذه المشاريع فاشلة لم تحقق أهدافها التربوية، نبهت النكت على أن تكون السياسة التعليمية من أجل تجاوز الصعوبات وتحقيق الانسجام مع الحياة بجميع تناقضاتها.

ففي المجتمع ترتبط هذه المحاولات بجملة من الصعوبات على مستوى إيجاد إستراتيجية تربوية متكاملة قادرة على التلائم مع المستجدات العلمية والتربوية من جهة، والمحافظة على الخصوصيات الحضارية الدينية و الاجتماعية من جهة أخرى، في الوقت الذي تحاصرنا فيه التحولات الجذرية التي يعرفها العالم الجديد.

إن استيراد النماذج التربوية أو غيرها يتم في إطار استيراد رؤية الآخر للعالم و تصوره للكون والإنسان والحياة، لذلك ينبغي أن نتعامل مع كل مستورد بهذا الفهم لأن معظم

النظريات التربوية المستوردة لحد الآن، هي مفاهيم زرعت في دماء مؤسساتنا التعليمية بشكل عشوائي لا تراعي عدة ثوابت ومتحولات: (التحولات الحضارية، العلاقات الاجتماعية، الوضعية الاقتصادية، البنية التحتية لمؤسساتنا التعليمية الحالية....)، هذه اللامبالاة ساهمت بشكل فعال في إنتاج علاقة الأستاذ / التلميذ من النوع الذي نعايشه في بنياتنا التربوية الآن، والذي يدل على أن النماذج المستوردة أنتجت تعليما مشوها و غير قادر على التحدي الحضاري وغارق في جمل من الصعوبات وبالتالي التنكيت على هذه العلاقة.

فإذا كانت البرامج التعليمية بعيدة عن الواقع المجتمعي و خصوصياته، فإنها حتما تدفع بالأساتذة وبالمتعلمين إلى النفور، والذي يترجم في شكل ردود فعل عدوانية في بعض الأحيان من طرف التلاميذ تجعل الأساتذة حائرين في شكل وطريقة التعامل معها، خاصة إذا علمنا أن الأستاذ في مراكز التكوين يتلقى نصوص مبتورة من دروس فن التربية، وعلم النفس التربوي مستوحاة من فكر جان جاك روسو أو جان بياجي وغيرهما من مفكري الغرب منذ فترة عصر الأنوار.

تعتبر النماذج التربوية المقدمة للطلاب والتي يتلقونها من الأستاذ مادة علمية وليدة حاجات اجتماعية أصيلة فرضتها التغيرات الاجتماعي والثقافية التي تحدث في المجتمع، ومن خلال الإصلاحات التربوية التي تحدث في المجتمع الجزائري وبصفة متكررة نكتشف أن الكثير من النماذج التربوية مستوردة من بلدان غربية، ولكن هذه النماذج المستوردة لم تحقق الانجازات التي توصلت إليها في أوطانها الأم. وهذا الحالة الاجتماعية خلقت في المجتمع الجزائري حالة تربوية متخلفة وتابعة، أبسطها تترجمها العلاقة التربوية بين الأستاذ والتلميذ في المؤسسات التعليمية الجزائرية، لأن ما يصلح من برامج تعليمية في مجتمع ما ليس بالضرورة أن ينجح في جميع المجتمعات. لأن هناك إختلافات مادية ونفسية وفكرية واجتماعية وهنا يقع الفاعلون التربويون في تناقضات، فمن جهة الفاعلون التربويون ملزمون بتطبيق التعليمات التربوية الرسمية مع مراعاة المستويات المختلفة جماعيا و فكريا بالنسبة لجميع التلاميذ، ومن جهة أخرى ملزمون بتحدي جميع الصعوبات المطروحة لخلق علاقة نموذجية في المؤسسات التربوية وهذا لن يتأتى أبدا في ظل الظروف الراهنة.

وعلى هذا الأساس تغيّرت أساليب المزاح في الأوساط التربوية من التنكيت اللفظي وتقليد المعلمين والمؤطرين والزملاء والزميلات إلى التقاط صور لهم في لقطات مضحكة ثم بثها على مواقع الانترنت وجعلها موضع تعليق للزوار، ورغم منع إستعمال الهاتف النقال بالمؤسسات التربوية غير أن هذه التعليمة لم تلق إستجابة بالعديد من المؤسسات، حيث لا زال الكثير من التلاميذ يستخدمونه داخل الأقسام خفية، وليس هذا فحسب بل يلتقطون صورا ويسجلون أشرطة فيديو يعرضونها فيما بعد على الخاص والعام، وقد تبنى طلبة اليوم طريقة جديدة للمزاح و التسلية في الأوساط المدرسية مستغلين التطور التكنولوجي في مجال الاتصال لا سيما الهواتف النقالة التي باتت في متناول الجميع تقريبا، حيث تخصص بعض التلاميذ في تحيّن الفرص لاصطياد أطرف اللقطات التي تحدث في المدرسة سواء تعلق الأمر بالمدراء، المراقبين، المدرسين أو التلاميذ، المهم لديهم أن تكون اللقطة مضحكة

وغريبة ومثيرة لاهتمام ثلة المشاغبين الذين يطلقون العنان لتعليقاتهم الساخرة، وقد أصبحت هذه الأساليب من الأساليب المفضلة لتلاميذ المتوسطات و الثانويات الذين تخلوا عن طرق المزاح التقليدية التي لم تتعد سابقا تقليد حركات الأستاذ و إلصاق العلك في كرسيه أو رشقه بقطع الطباشير كلما أدار ظهره... وغيرها.

من الحركات التي تعوّد عليها المدرسون وغالبا ما يستعدون لها مع المحاولة المستمرة لضبط الفاعل متلبسا و بالتالي تلقينه العقاب المناسب، أما اليوم فقد تطورت وسائل الشغب مع التطور التكنولوجي حيث الأساتذة باتوا يخشون الوقوع في مثل هذه المقالب التي تعكس تراجع التربية وتحوّل المؤسسات التعليمية إلى فضاء لا يختلف عن فضاءات التسلية الأخرى لغياب التأديب، ولا تكاد مواقع الأنترنت تخلو من الصور الملتقطة داخل الأقسام و فناء المؤسسات التي يدرسون بها والتي يأخذونها بغرض الاحتفاظ بها للذكرى لكنها تتحول بفعل خيال زملائهم و تعليقاتهم الساخرة إلى محور للتنكيت.

لقد أصبحت الكثير من المواقع الالكترونية وخاصة مواقع التواصل الاجتماعية، تعرض بعض الصور على شكل كاريكاتور، وكذلك بعض الصور المفبركة التي تضفي عليها طابع الطرافة والتي تلقى بدورها تعليقات مضحكة، والكثير منها هذه الصور والتعليقات تجاوزت خطوط المزاح إلى الانتقاد اللاذع والسب وحتى التنبيه وغالبا ما يتجرأ التلاميذ على فعل ذلك بعد مغادرتهم للمؤسسة وانتقالهم إلى مؤسسات أخرى مستعملين في ذلك أسماء مستعارة.

أهم نتائج الدراسة:

-تعتبر النكتة إحدى التعابير الرمزية والمخزون الثقافي المجتمعي، فهي إحدى الركائز الأساسية لفهم المجتمع والجماعات الإنسانية ودراستها، فمن جهة يمكن اعتبارها مرآة صادقة لما تحمله من قيم ومعتقدات وممارسات، ومن جهة أخرى تكشف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن الجوانب الخفية و الحقيقية للمجتمع الجزائري.

الوظيفة الاجتماعية للنكتة، يمكن تلخيصها في تقوية التعاون الاجتماعي، تنشيط العقل والإبداع والخيال، فهم مطالب الآخرين والتفاعل والتواصل مع الناس، والتقرب إليهم وكسبهم في العمل العـام، مقاومة الاكتئاب والقلق والغضب.

-تفسر النكت على أنها نوع من أنواع التعبير عن الأفكار غير المعلنة، وأن قوة النكتة تكمن في هدفها، وعادة تكون الأفكار غير المعلنة مؤلمة ومستفزة تؤدي إلى صراع نفسي كبير لدى الفرد، وتعبر النكتة عن نقد لواقع يصعب نقده بشكل مباشر وصريح.

-النكتة كيفما كان محتواها تتطلب مشاطرة وموضوع أي أن يكون الشكل هرميا، القاعدة هي القائل والمستمع أو المستمعون (الجماعة) والقمة هي المراد (شخصا كان أم جماعة أم مؤسسة) وعليه، فإن وظيفة النكتة إنما تنشأ من الدور الاجتماعي لها.

-تعتبر النكتة إحدى أهم أشكال المقاومة الثقافية في المجتمع الجزائري، الذي يعاني من الاحتقان والضغط بكل أشكاله، كما أن النكتة هي الشكل الفني للسخرية وهي البناء المعماري للنقد الساخر من المجتمع والمؤسسات والأفراد.

-النكتة لها وظيفة اجتماعية للتواصل مع الناس ولتحقيق التفاعل بين الأفراد والجماعات الاجتماعية، وللتحكم في سلوك الآخرين بالسخرية أو إزالة الخوف، ولمهاجمة السلطة السياسية والدينية والاجتماعية، وفي نقل المعلومات باتجاه تحذير الناس وتعزيز التماسك الاجتماعي.

-إن النكتة الجزائرية لها خصائصها التي تفرقها عن نكت الشعوب الأخرى، فهي مركبة، وهي كجنس أدبي لا يقتصر إنتاجه على فئة من الشعب دون غيرها، وإن اقتربت أكثر من فن القصة القصيرة، فهي متداخلة مع أجناس أدبية أخرى، فقد تأتي في بيت من الشعر كما تأتي في سياق روائي أو مشهد مسرحي أو غير ذلك.

-النكتة فن شعبي ساخر، يعبر عن حالات الشعب الجزائري خلال فترة زمنية معينة، ويمكن اعتبار النكتة أداة للتواصل الاجتماعي، لما تمتلك من قوة تلبي بعض الحاجات التعبيرية التي لا يمكنهم أن يعبروا من خلالها على أكثر من موقف، كما أنها تعبر عن أشياء حقيقية يلجأ إليها أفراد المجتمع الجزائري لكونها أفضل وسيلة للتعبير.

خاتمة:

إن إطلاق النكتة، أو سماعها، يستهدف في الأصل خلق رأي عام حول موضوع معين أو تناقض، أو مشكل داخل المجتمع، أو تنبيه، أو توجيه وجهة معينة سواء بالرفض أو التأييد أو القبول، ولهذا فالاتصال الجماعي وخاصة الاتصال الشفوي، ما يعتبر وسيلة هامة لانتقال وانتشار النكتة.

ومحتوى النكتة لا يبقى دائما طي الكتمان، و إنما ينتقل وينتشر، كما أنها تعمل على خلق الروح المعنوية، وهي الغاية التي تستهدف الحرب النفسية، ومن هنا نجد أن للنكتة دور هام في رفع أو خفض الروح المعنوية، وعلى ذلك تختلف درجة التأثير ونوعه تبعا لنوع النكتة، والأهداف التي تخبأ وراءها، وفي الأصل فإن إنتاج النكتة وانتشارها يأتي في إطار محاولة إرضاء الدوافع والتجارب مع انفعالات أفراد المجتمع الجزائري والتنفيس عنهم و لهذا نجد أن أفراد المجتمع بطريقة غير مباشرة يكونون في حالة تهيؤ لتلقي النكت و ترديدها، خاصة إذا كان الموضوع ذو أهمية بالغة.

في الواقع أن أغلب أفراد المجتمع يرددون النكت في بادئ الأمر لأنها تحمل عنصر التشويق والضحك، السخرية، ولكنهم سرعان ما يكتشفون المقاصد والمغزى الأساسي للنكت، وهنا تدخل النكت في مرحلة الاتصال والتوزيع، ولا شك أن النكت كموقف متفجر في أغلب تركيبها الجمالي واللغوي تستطيع الانتشار بين أفراد المجتمع الجزائري خاصة بين الجماعات العالية التفكير، فالوعي والتفكير المنطقي وعملية النقد والتحليل والفهم الواضح تمثل عوامل رئيسية في انتشار النكتة.

قائمة المراجع:

1.حامد عبدالهوال(1882)، السخرية في الأدب المازني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر.

2.سيمان بطيش(1883)، الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبود، دون ذكر مكان النشر، دون ناشر.
3.عباس محمود العقاد(1979)، ساعات بين الكتب منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت.
4.فتحي محمد عوض أبوعيسى(1970)، الفكاهة في الادب العربي، دراسات ووثائق. الجزائر: ش، و، ن، ت.
5.محمد أبوخضور(1977)، النكتة الصهيونية دراسة نفسية اجتماعية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
6.محمد الجوهري(1990)، علم الفلكلور، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر.
7.محمد ناصر أبوحمام(2004)، السخرية في الأدب الجزائري الحديث (1962-1925)، المطبعة العربية، ط1، الجزائر.
8.نبيلة ابراهيم(دس)، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة، مصر.
9.نرجس حجاب(1992)، التراث الشعبي علم وحياة ،مجلة الثقافة والتراث القومي(المنظمة العربية للثقافة والعلوم)، ع1، تونس.
10.هنري برغسون(2007)، الضحك: ترجمة علي مقلد، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
11.H.Bergson(1940), Le rire, PUF, Paris, France.
12.H.Spencer(1981), The physiology of laugherin: essays scientific political and speculative, VII.N-YD, Applentan.
13.Lucien Fabre(1928) Le rire et les rieurs, Paris.
14.Henri Bergson, laughter: an essay on the meaning of the comic authorised translation by Cloudesley l es l, (paris), m.a (cantab) and Fred Rothwell, b.a (London).
15.Freud Sigmund(1927), Humor The Future of an Illusion, Civilization and Its Discontents and Other Works, Standard Edition. Vol. 21. London: The Hogarth Press, 1961.
16.Sigmend Freud(1930), wit and its relation to the unconsions, moffat yard, new york.
17.Francis Jeanson (1953), The Human Meaning of Laughter: Translation by David Victoroff, Century British Philosophy, london.